من بناء الأجيال إلى بناء الطوب.. نزيف الكفاءات الأكاديمية اليمنية (١ - ٢)

هجرة الآلاف من كوادر الجامعات إلى الخارج فاقم التحديات التي يواجهها التعليم العالي وتراجع أدائه ومخرجاته

الأمناء / إرم نيوز / عبداللاه سُميح:

أستاذ الأدب اليمني.. من عامل بناء إلى بائع قات:

وجد الأستاذ الجامعي اليمني، إياد المشرحي - الحاصل على درجة الدكتوراه بامتياز- نفسه يناول ربّ عمله البنّاء، سطلًا مليئًا بالأسمنت، ولا تكاد تمضي بضع دقائق حتى يعود إليه محملًا بأحجار الطوب، ثم يلتقط السطل مرة أخرى ليعيد ملأه، في مشهد يومي يتكرر باستمرار، بعيدًا عن قاعة المحاضرات التي عاش سنوات يكافح من أجل تحقيق حلمه للوصول إليها كأستاذ جامعي، يسهم في بناء أجيال متعلمة تخدم المجتمع.

اضطر أستاذ مساق «الأدب اليمني» في قسم اللغة العربية بكلية التربية التابعة لجامعة عدن، بمحافظة الضالع، لخوض جولة شاقة بحثًا عن عمل إضافي، يسدّ به رمق أسرته، نظرًا لعدم تسوية وضع مرتّبه الشهري، الذي بقي عند درجة البكالوريوس، بمبلغ 78 ألف ريال يمني (54 دولارا) رغم حصوله على درجة الماجستير.

ويقول المشرحي لـ«إرم نيوز»، إنه عمل كبائع للمشتقات النفطية في السوق السوداء، ثم انتقل إلى بيع نبتة «القات» الشهيرة في اليمن، قبل أن يصبح أخيرا مساعد بنّاء بأجر يومي زهيد، حتى يتمكّن من مواجهة شظف العيش ومتطلبات أسرته الضرورية، في ظل أوضاع اقتصادية متردّية لا يستطيع مجابهتها.

تجاهل حكومي لأساتذة الجامعات اليمنية:

يشكو الأكاديميون اليمنيون، من تجاهل الدولة لمطالبهم برفع رواتبهم ما دفع مجلس نقابة هيئة التدريس بجامعة عدن، لتنفيذ إضراب شامل عن العمل ووقف العملية التعليمية أواخر العام 2021.

تصل أعداد المعيّنين أكاديميا في جامعة عدن الحكومية وحدها، إلى أكثر من 927 أكاديميًا، يمارس الكثير منهم عملهم التعليمي منذ نحو عقد، دون تعزيز مالي، وفق رئيس اللجنة التنسيقية العليا للمعينين أكاديمياً بجامعة عدن، علي القحطاني.

هجرة العقول الأكاديمية إلى خارج اليمن:

منذ عقود مضت، يواجه اليمن هجرة الآلاف من كوادره الأكاديمية من مختلف الجامعات المحلية، إلى الخارج، لكن وتيرة الهجرة ارتفعت خلال سنوات الحرب؛ ما أدى إلى تفاقم التحديات التي يواجهها قطاع التعليم العالي واستمرار التراجع في أدائه ومخرجاته.

في هذا الحيز نفتح ملف هجرة الكوادر الأكاديمية اليمنية إلى الخارج، في مناطق سيطرة الحكومة الشرعية هذه المرة، كاشفا عن أسبابها ونتائجها وتأثيراتها على العملية التعليمية الجامعية، بشكل يهدد مستقبل اليمن.

تهديد واعتداء:

عقب بضعة أيام فقط على تعرّض كلية الآداب بجامعة عدن، لهجوم مسلّح قتل على إثره أحد أفراد أمن الكلية وأصيب زميله الآخر في العام 2018، تلقّى أستاذ الفلسفة والنائب الأكاديمي للكلية، الدكتور قاسم المحبشي، تهديدات أجبرته على مغادرة البلاد.

في بداية الأمر، استقبل الدكتور المحبشي رسائل تهديد عبر تطبيق «واتس آب»، ولم يُعرها اهتمامًا، لكن الاتصال الهاتفي الذي تلقاه بعد ذلك، كانَ له وقعٌ آخر.

"شخص مجهول، أخبرني بأنني مطلوب، وأن عليّ تجهيز رأسي، حاولت الاستفسار منه علّه مخطئ في الرقم، لكنه سألني: أنت قاسم المحبشي؟ فقلت: نعم. فقال: والله العظيم سنخفيك من على وجه الأرض. سألته عن سبب ذلك وعن هويته، فصرخ بصوت متوحش فيه تهديد ووعيد قائلًا: نحن الدولة الإسلامية ستعرفنا حينما ترانا!. أصبت بالخوف والذهول، فأنهيت المكالمة»، كما يقول المحبشي.

هذا الاتصال والرسائل المتكررة، بالإضافة إلى الظروف الأمنية الهشّة، جعلت الأستاذ الجامعي يشعر بالقلق من خطورة التهديد وجدّيته، في ظل استمرار مسلسل جرائم الاغتيالات التي شهدتها عدن خلال السنوات الماضية، وأسفرت عن مقتل العشرات من الكوادر والقيادات السياسية والعسكرية والأكاديمية والمدنية والدينية.

يؤكد الدكتور المحبشي عدم وجود أي مشكلات شخصية له مع أي شخص أو جماعة أو مؤسسة، وأن ذلك الاتصال، جعله يختفي عن المجال العام في اليمن لبعض الوقت، قبل أن يغادر بعدها نحو العاصمة المصرية القاهرة، التي يمارس فيها حاليًا نشاطه الأكاديمي والمدني.

فرصة التفرغ العلمي بالقاهرة:

ونجح أستاذ الفلسفة بجامعة عدن، في الحصول على فرصة للتفرغ العلمي في جامعة القاهرة، قسم الفلسفة بكلية الآداب، منذ العام 2020، جددها عدة مرات، وتمكن خلالها من إنجاز الكثير من المشاريع البحثية، وأصدر أربعة كتب، وثلاثة دواوين شعرية، كما حصل خلال فترة إقامته في القاهرة على عضوية عدد من الاتحادات والهيئات العربية، وشارك في عدد من المؤتمرات العلمية والندوات الثقافية في القاهرة وخارجها.

محاولات اغتيال واعتداءات تطال أساتذة الجامعات:

ووسط حالة الفوضى الأمنية، باتت مؤسسات التعليم العالي في مواجهة مباشرة مع تحديات أمنية تهدد سير العملية التعليمية، وتستهدف كوادرها، إذ أصيب رئيس جامعة تعز، الدكتور محمد الشعيبي، وقتل مرافقه في محاولة اغتيال تعرّض لها في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2018، وسط مدينة تعز.

كما تعرّض القائم بأعمال رئيس الجامعة، الدكتور رياض العقاب، في حزيران/ يونيو 2021، لعملية اعتداء من قبل ضابط لدى قوات الجيش اليمني بالمحافظة، في وقت تحوّل فيه مبنى كلية الطب بجامعة تعز، إلى مقر لقوات اللواء الخامس حماية رئاسية، بدعوى وقوعه في خطوط النار.

ونجا نائب رئيس جامعة عدن لشؤون الدراسات العليا والبحث العلمي، الدكتور، محمد عقلان، أواخر العام 2021، من محاولة اغتيال، إثر إطلاق مسلحين مجهولين النار عليه بمديرية المنصورة، شمالي عدن، ما أدى إلى إصابته، في حين تعرّض منزل رئيس جامعة عدن، الدكتور الخضر ناصر لصور، في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2020، لاعتداء وحصار من قبل طلاب غاضبين على خلفية رفضهم في برنامج السنة التحضيرية، فضلًا عن عمليات قتل واغتيالات طالت عددا من أساتذة الجامعات، كان آخرهم الدكتور عبدالله القيسي، أواخر كانون الثاني/ يناير المنصرم، شرقي مدينة تعز.

فساد وإهمال:

لا يخفي الأكاديمي محمد النعماني، اللاجئ في بريطانيا منذ 13 عاما، رغبته في العودة إلى جامعة عدن وتقديم ما لديه من معرفة، في حال تحسنت الظروف وارتفع مستوى جودة التعليم العالي فيها، وأزيلت معوقاته، وتخلصت الجامعات الحكومية من حالة الفساد المستشرية التي قال إنها «دفعت الكثير من الأساتذة إلى الهجرة أو التوجه نحو جامعات أخرى».

وفصل النعماني من جامعة عدن في العام 2009، بقرار يصفه بـ"التعسّفي" من رئيس الجامعة الأسبق، عبدالعزيز بن حبتور - رئيس حكومة الحوثيين حاليًا، بسبب "نشاطي السياسي ضمن حركة المعارضة الجنوبية في الخارج".

وقال النعماني، الحاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم السياسية والعلاقات الدولية، من جامعة سانت بطرسبرغ، بروسيا، لـ«إرم نيوز»، إن حالة الإهمال والحرمان والظلم التي يتعرض لها الأكاديميون في الجامعات اليمنية، هي من أبرز أسباب هجرتهم إلى الخارج.

حرمان من الترقيات بسبب الآراء الأكاديمية والعلمية:

يؤكد النعماني أن «الأبحاث العلمية والدراسات والمحاضرات الأكاديمية دائمًا ما تُغلّف بطابع سياسي، وأحيانًا استخباري، فضلًا عن تحويل الجامعات إلى مؤسسات أمنية واستخباراتية، إذ يجد المدرس الجامعي نفسه معتقلًا أو محرومًا من عملية الترقية الأكاديمية والعلمية، بسبب آرائه الأكاديمية والعلمية التي يُفترض أن تُحترم وأن لا يتم تسييسها وأن لا تخضع للرقابة والعقاب من قبل جهات الدولة أو رئاسة الجامعة».

واعترف وزير التعليم العالي والبحث العلمي، لدى الحكومة الشرعية، الدكتور خالد الوصابي، في حوار صحفي سابق مع إحدى الصحف المحلية منتصف العام الماضي، بوجود فساد مالي وإداري وأكاديمي في الجامعات، وقال إن البعض «اعتبر الجامعات عزبة خاصة».

تنفير من الدولة:

من خلال الاستطلاع الذي شمل 32 أكاديميًا يمنيًا على مدى جزئي هذه المادة الاستقصائية، ثمة إجماع على أن الدولة تسهم بشكل فعّال في خلق بيئة طاردة للأكاديميين المحليين، من خلال عدة عوامل، أبرزها انعدام تمويل مؤسسات التعليم العالي وغياب الميزانيات التشغيلية باستثناء بند الرواتب في مناطق سيطرة الحكومة، والتي تغيب في مناطق سيطرة الحوثيين منذ العام 2016.

يُضاف إلى ذلك، توقف التسويات المالية للمبتعثين العائدين إلى الداخل الذين حصلوا على درجة الدكتوراه، إذ ينتظرون ما لا يقل عن عامين وهم يستلمون رواتب تقدر بـ45 ألف ريال (أي ما يعادل 31 دولارا) ولا تتم تسوية أوضاعهم إلا بعد مرور هذه المدة، وبعد وصول التسوية فإنها لا تشمل العامين الماضيين، فضلًا عن توقف الزيادات المالية المقدرة بنحو 30 ألف ريال (أي ما يعادل 21 دولارا) للحاصلين على ترقيات علمية منذ قرابة 4 سنوات.

ويشير الأكاديميون المستطلعة آراؤهم إلى أسباب أكاديمية ناتجة عن قصور الدعم الحكومي لعضو هيئة التدريس ومساندته على تجاوز الظروف الصعبة، وغياب دعم المشاريع البحثية الأكاديمية، وعدم تكفّل الدولة بمشاركاتهم الخارجية، ما يمنع عضو هيئة التدريس من ممارسة مهامه كما يجب.

كما يتفق الأكاديميون على أن الظروف الاقتصادية للبلد وانهيار العملة الوطنية، ضاعفت الأعباء لدى أساتذة الجامعات الذين فقدوا ما يزيد عن 80% من قيمة رواتبهم الشهرية، إذ كان يصل راتب الأستاذ الجامعي في العام 2014، إلى 1400 دولار، بينما يعادل اليوم 280 دولارا فقط، في وقت لا تتوفر فيه فرص عمل أخرى يمكن لعضو هيئة التدريس أن يستعين بها لتحسين دخله.

وتطرق بعض الأكاديميين إلى أسباب أخرى اجتماعية، تتمثل في اكتظاظ الواقع الاجتماعي بالعديد من المشكلات والسلبيات وعدم توفر الخدمات الضرورية، والظروف الأمنية غير المستقرة، إلى جانب أسباب نفسية، مرتبطة بحالة الإحباط وعدم التقدير التي تجعل عضو هيئة التدريس يفكر في البحث عن بيئة مستقرة ليتمكن من العطاء بشكل أفضل.

تشير أستاذة التخطيط التربوي المساعدة بكلية التربية والعلوم والآداب، في فرع التربية بجامعة تعز، الدكتورة انشراح أحمد إسماعيل، في دراسة بحثية منشورة بمجلة «الآداب، للدراسات النفسية والتربوية» 2022، التي شملت عينة من (33) خبيرا أكاديميا من عدة جامعات، إلى أن العينة أكدت بنسبة 100% أن أزمات التعليم العالي أثناء الحرب الحالية، مختلفة تمامًا عن ما كانت تعانيه قبل اندلاع الحرب.

أولوية المعسكرات وعزوف الالتحاق بالجامعات:

خلال السنوات الأخيرة، بدأت الجامعات الحكومية معاناتها مع عزوف الطلاب عن الالتحاق بها، خاصة في كليات التربية والعلوم الإنسانية، نتيجة لأسباب مرتبطة بالوضع الاقتصادي إثر الحرب، وأخرى اجتماعية نظرًا لتراجع مكانة المعلم وبيئة عمله المستقبلي وضعف مردوده المادي وقلة الوظائف التربوية - وفق دراسات أكاديمية محلية - وهو ما يهدد العملية التعليمية برمتها ويقلص من أعداد المعلمين مستقبلًا.

واضطرت جامعة تعز إلى تعليق الدراسة في 6 تخصصات دراسية بكلية التربية، خلال العام الدراسي 2022/2023، بعد انخفاض أعداد المتقدمين، كما تراجعت أعداد الملتحقين بكليات الجامعة، بنسبة وصلت إلى 45%، إذ استقبلت خلال العام الدراسي الماضي نحو 4850 طالبا وطالبة، بعد أن كانت تستقبل 7500 طالب وطالبة خلال السنوات السابقة.

بكلاريوس إدارة أعمال يعمل بورشة نجارة:

يقول الطالب، رضوان عبدالكريم (اسم مستعار) الحاصل على بكالوريوس في إدارة الأعمال من جامعة عدن عام 2014، إنه لم يتمكن من العثور على عمل في مجال تخصصه منذ قرابة تسع سنوات، واضطر للعمل منذ العام 2017 في ورشة نجارة، قبل أن يجد عملا مريحا العام الماضي، في بيع الأحذية في محل تجاري بمدينة كريتر.

ويشير عبدالكريم، الذي فضل عدم الإفصاح عن هويته، إلى أن جاره في منطقة «العيدروس"، ترك الدراسة الجامعية عام 2018 بكلية العلوم الإدارية بجامعة عدن، بعد عامين من بدئها، وانضم إلى السلك العسكري حتى يتمكن من الحصول على مصدر دخل، بدلًا عن الأعباء المالية التي يحمّلها لأسرته أثناء تعليمه "حتى لا يكون مصيره نفس مصيري".

وزير التعليم العالي يعترف بوجود فساد مالي وإداري وأكاديمي في الجامعات المحلية